تجليات الأسطورة في الأدب العربي القديم
"الأسطورة الحيوانية" أنموذجا

الأستاذ: مصطفى زماش
جامعة محمد خيضر بسكرة
البريدالالكتروني : zemachemostefa@gmail.com

ملخص الدراسة :

الأسطورة مصدر ثرور للمعرفة لدى الإنسان القديم، والإنسان العربي أحد أولئك؛ وعلاقته بالحيوان علاقته بالحياة، إذ منه المأوى والدواء والمركب والغذاء، وعالم الحيوان في تنوعه وعجائبه مثار للسؤال ومرتع خصب للخيال، ما دفع العربي الجاهلي إلى نسج أساطير تجيب عن سؤالاته المختلفات، وتكون مأنسا ومحكى للولدان والندماء. وهذا مقال ينسلك في هذا الموضوع عارضا لشيء من أساطير العرب القديمة، كاشفا أصلها ومساقها، ومحللا كنهها وفحواها.

Abstract

Historically, myth has been a rich source of knowledge for all humanity and Arabs in particular. Animals have enjoyed a central importance in Arabic culture and life. This importance manifests itself in the close relationship between the ancient Arab and animals as a source of food, shelter, means of transportation, and cure for diseases. The variety of animals and the mysticism that surrounds them pushed ancient Arabs to raise questions over a number of animals, and thus created myths as an attempt to answer them as well as an entertainment for children and close friends. Hence, this article attempts to explore a number of ancient Arabic myths, shedding light on its origin and evolution, and trying to decipher its codes and demystify their meanings.

مهاد:

لم تبق أساطير العرب في جاهليتهم رهينة الحكايات والقصص، إنما تقحَّمت فنونهم وآدابهم من شعر ورجز ومثل وحكمة وخطابة، لتضفي عليها بعدا تاريخيا

فلسفيا، يكشف عن أنظارهم تجاه الكون والطبيعة والموت والحياة، حتى لا تكاد تجد أسطورة بقيت بمعزل عن تلك الآداب النضّاحة.

1- مفهوم الأسطورة:

لقد ورد في المعجمات العربية دلالة للأسطورة، فجاء في "مقاييس اللغة" "لابن فارس" معنى "سطر": «السِّينُ وَالطَّاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ مُطَّرِدٌ يَدُلُّ عَلَى اصْطِفَافِ الشَّيْءِ، كَالْكِتَابِ وَالشَّجَرِ، وَكُلِّ شَيْءٍ اصْطَفَّ. فَأَمَّا الْأَسَاطِيرُ فَكَأَنَّهَا أَشْيَاءُ كُتِبَتْ مِنَ الْبَاطِلِ فَصَارَ ذَلِكَ اسْمًا لَهَا، مَخْصُوصًا بِهَا. يُقَالُ سَطَّرَ فُلَانٌ عَلَيْنَا تَسْطِيرًا، إِذَا جَاءَ بِالْأَبَاطِيلِ. وَوَاحِدُ الْأَسَاطِيرِ إِسْطَارٌ وَأُسْطُورَةٌ»[1].وجاء المعنى مماثلا في "لسان العرب":«..والأَساطِيرُ: الأَباطِيلُ. والأَساطِيرُ: أَحاديثُ لَا نِظَامَ لَهَا.، وسَطَّرَ عَلَيْنَا: أَتانا بالأَساطِيرِ.، يُقَالُ سَطَّرَ فلانٌ عَلَيْنَا يُسَطِّرُ إِذا جَاءَ بأَحاديث تُشْبِهُ الْبَاطِلَ. يُقَالُ: هُوَ يُسَطِّرُ مَا لَا أَصل لَهُ أَي يُؤَلِّفُ..،يُقَالُ: سَطَّرَ فلانٌ عَلَى فُلَانٍ إِذا زَخْرَفَ لَهُ الأَقاويلَونَمَّقَها، وَتِلْكَ الأَقاويلُ الأَساطِيرُ..»[2]، ومنه فإن دلالة الأسطورة تعني الكلام الذي لا أصل له بعيدا عن الواقع يميل إلى الخيال، ويبتعد عن دائرة المنطق.

ويقابل مصطلح الأسطورة في اللغة الأجنبية "Myth" المشتق من الأصل اليوناني"Muythos" والتي تعني«حكاية شعبية أو أدبية تضم كائنات خارقة وإجراءات خيالية التي تنقل الأحداث التاريخية»[3]، أي أنها حكايات لا أساس لها من الصحة، العجيبة والخارقة للعادة. وقد عرفها "فراس السواح" بقوله بأنها: «حكاية مقدسة يلعب أدوارها الآلهة، وأنصاف الآلهة، أحداثها ليست مصنوعة أو متخيلة، بل وقائع حصلت في الأزمنة الأولى المقدسة، إنّها سجل الآلهة، تلك الأفعال التي أخرجت الكون من لجة العماء.، وهي حكاية مقدسة انتقلت من جيل إلى جيل

1: أحمد بن فارس (ت395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط2، 1399هـ - 1979م، ج3، ص72، 73.

2: ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم بن على ت711هـ)، دار صادر ، بيروت، ط3، 1414هـ، 1992م، ج4، ص363، 364.

(أبو منصور محمد بن أحمد، ت370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 2001، مادة (حيا)، ج5، ص186.

3: فراس السواح، مغامرة العقل الأولى- دراسة في الأسطورة سوريا أرض الرافدين، دار علاء الدين، دمشق، ط11، ص19.

بالمشافهة»[4]. ويرى "خليل أحمد خليل" بأنها «حكاية عن كائنات تتجاوز تصورات العقل الموضوعي، وما يميزه عن الخرافة هو الاعتقاد فيها، فالأسطورة موضوع الاعتقاد»[5]، فهي مرتبطة بالتصورات الدينية والاعتقادية. ويرى أيضا "مالينوفسكي" بأن «الأسطورة إحياء قصصي لواقع فطري يروي استجابة لنزعات دينية عميقة وميولات أخلاقية وارتباطات عاطفية، فهي تقوم من الثقافة البدائية بوظيفة لاغنى عنها، فهي تعبر عن العقيدة وتزكيها وتقننها، وتصون الأخلاق وتدعمها، وتبرهن على كفاءة الطقوس، وتنظم قواعد عملية لهداية الإنسان»[6]. ويلحق بالأساطير بعض قصص المسخ، وتحول بعض الناس إلى حيوانات بقوة سحرية، وغيرها، ومثال ذلك قصة المسخ عند العرب في أسطورة "إساف ونائلة" اللذين مسخا إلى صنمين جزاء ما صنعا من فاحشة في الكعبة.

وتعد الأسطورة أقدم مصدر لجميع المعارف الإنسانية، فهي سجل لأمجاد الأمة وانعكاس لأصالتها في الحياة، وصورة لوجدانها القومي، فلها دور مهم في تثبيت الكيان الحضاري للمجتمعات، من خلال انتقالها من عصر إلى آخر. وليس للأسطورة مؤلف، فهي مجهولة المؤلف، لأنها ليست نتاج فردي بل هي ملكية جماعية يخلقها خيال الناس وعواطفهم وتأملاتهم، وتتلون بحسب أذواقهم ومجتمعاتهم[7].

تنوعت الأسطورة بحسب المجال الذي تندرج تحته والموضوع الذي تتناوله، فقد حصرها الباحثون في أنواع عدة، هي: الأسطورة التاريخية التي تبحث في تاريخ الإنسانية، والأسطورة التفسيرية التي تفسر الظواهر الكونية وتعللها، والأسطورة الدينية التي تبحث في المعتقدات الدينية، والأسطورة الطقوسية التي تتحدث عن

4: فضيلة لكبير، دور الأسطورة الدينية في بناء النظام الاجتماعي، مذكرة ماجستير(مخطوط)، قسم علم الاجتماع والديمغرافيا، جامعة باتنة، 2009/2008، ص24، 25. نقلا عن:

Petit Larousse en Couleurs- Libraire Larousse, 1980, P 614.

5: خليل أحمد خليل، مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط3، 1986م، ص08.

6: ينظر: فاطمة علوي الصافي، الأسطورة اليمنية في الأدب العربي، مذكرة دكتوراه (مخطوط)، قسم اللغة العربية، جامعة البنجاب، باكستان، 1407هـ- 1976م، ص16.

7: ينظر: فاطمة شكاك، التراث الأسطوري في المسرح الجزائري المعاصر، مذكرة ماجستير (مخطوط)، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة باتنة، 2009/2008، ص28.

الطقس والأحوال الجوية، فاعتقد البشر أن لكل ظاهرة جوية إله يحكمها، وأسطورة التكوين التي تصور لنا كيف خلق الكون وما يحيط به[8]، وغيرها من الأساطير.

2- الحيوان:

الحيوان في لغة العرب اشتقاقه من الحياة؛ ألمح إلى هذا غير واحد من اللغويين، إذ قالوا: هو «اسم يقع على كل شيء حيٍّ»[9]، وبه فسّر المفسرون قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت 64]؛ ذلك أن فيه مجلى حياة بني البشر، بكل ما تنطوي عليه من مسرات وملمات، فمنزلته عند الألى بادوا في الأزمن المواضي منزلة جليلة؛ لأنه يقاسمهم الروح التي تضطرب فيها المشاعر المضمرة والظاهرة؛ ودليل ذلك قول العرب:

أحقد من جمل وأشجع من أسد وأظلم من حية[10]. ومن تعظيمهم لشأن الحيوان أن صوّروا الآلهة في الجاهلية على صورها، فقد ذكر الواقديُّ أن العرب صنعت يغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسرا على صورة نسر[11].

3- الأسطورة الحيوانية في التراث العربي:

والذي قلَّب وريقات الأسفار العتاق من ميراث آبائنا الأولين، وكحّل عينه بمحاسن ما جادت به أقلامهم، ألفى فيضا من آثار وأخبار وأشعار وأمثال وقصص، تحكي أشياء عن حياة الحيوان يأباها بنو العصر الحديث من ذوي العلم؛ ككلام الحيوانات مع بعضها، فقد كانت الملاذ والمعاذ للقرن الماضين، يُسكتون بها سؤالات النفس التواقة لتفسير الظواهر التي يرونها صباح مساء رأي العين، فتسد تلك الأساطير عطش العقل العربي للمعرفة. وهي أكبر من أن تحصر لكنْ في التمثيل غناء، فمن أساطير الأولين:

8: ينظر: نفسه، ص30 وما بعدها.

9: الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد، ت370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 2001، مادة (حيا)، ج5، ص186.

10: ينظر: ابن عبد ربّه (أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد، ت328هـ)، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1983، ج3، ص11.

11: ينظر: القرطبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، ت671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب العلمية، ط2، القاهرة، 1964، ج18، ص309.

- **أسطورة العنقاء:**

العنقاء طائر خرافي، انتسجت حوله أسطورة لدى كثير من الأمم القديمة كاليونانيين؛ إذ نقل الدميري كلاما عنه لأرسطوطاليس[12]، وكذلك الفُرس؛ حيث أشار الجاحظ أنهم كانوا يرسمونهم على بُسُط الملوك[13]. ومجمل خبر هذا الكائن الأسطوري أنه عندما يحسُّ بقرب أجله، يجمع أعواد العنبر التي تحترق بأشعة الشمس، فيشتعل جسمه، ثم ينبعث من الرماد طائرا وليدا وخلقا جديدا[14]. فرمزه عند هذه الأمم: البعث بعد الفناء، والنشور بعد الموت، والتجدد والخلود. وتعد أسطورة العنقاء من أكثر الأساطير حضورا في الشعر العربي الحديث، فقد حلَّى بها شعره بدر شاكر السياب[15] ومحمود درويش[16] وسميح القاسم[17] وأدونيس[18] وغيرُهم.

والعنقاء في الفكر العربي القديم، طائر جميل عظيم، مهيب مخوف[19]، «معروف الاسم مجهول الجسم»[20]، طويل العمر شديد القوى[21]، قيل: سمي بالعنقاء لطول عنقه[22]. آمن به قوم وكذّب به آخرون حتى قالوا[23]: (البسيط)

12: ينظر: الدميري (كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى، ت808هـ)، حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، ط2، 2003، ج2، ص221.

13: ينظر: الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر، ت255هـ)، الحيوان، دار الكتب العلمية، ط2، 2003، ج7، ص72.

14: عبد الرحمن حمدان، الأسطورة في مراثي الرئيس الراحل ياسر عرفات، مجلة جامعة الأقصى، غزة، فلسطين، المجلد12، العدد1، يناير2008، ص6

15: للشاعر بدر شاكر السياب قصيدة عنوانها: "القصيدة والعنقاء"، ضمّنها أسطورة العنقاء.

16: للشاعر محمود درويش قصيدة عنوانها: "مصرع العنقاء"، ضمنها أسطورة العنقاء.

17: للشاعر سميح القاسم قصيدة عنوانها: "عمامة للملوك، وطربوش للآغا، وقدَّاس لبيروت"، ضمّنها أسطورة العنقاء.

18: للشاعر أدونيس قصيدة عنوانها: "البعث والرماد"، ضمّنها أسطورة العنقاء.

19: ينظر: الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ج2، ص222.

20: الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد، ت393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط4، بيروت، 1987، مادة (عنق)، ج4، ص1534.

21: ينظر: الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ج2، ص221.

22: ينظر: نفسه، ج2، ص222.

الجود والغول والعنقاء ثالثةً ... أسماء أشياء لم تخلق ولم تكنِ

وقال أحدهم[24]: (الكامل)

لمَّا رأيت بني الزمان وما بهم ... خلٌّ وفيٌّ للشدائد أصطفي

أيقنت أن المستحيل ثلاثة ... الغول والعنقاء والخلُّ الوفي

وهي في التصور العربي رمز للمرام المتأبّي والغاية المتمنِّعة والأمل البعيد؛ ولذلك قال أبو العلاء الشاعرُ الفيلسوف[25]: (الوافر)

أرى العنقاء تكبر أن تصادا ... فعاند من تطيق له عنادا

فكأنه يردد قول عمرو بن معدي كرب[26]: (الوافر)

إذا لم تستطع شيئا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيعُ

والاختلاف بين العرب وغيرهم بيّنٌ في خبر العنقاء والرمز الذي تغذّيه، لكنهما متفقان في أنه طائر مروي غير مرئي، قال الجاحظ: «الأمم كلها تضرب المثل بالعنقاء في الشيء الذي يسمع به ولا يرى»[27].

والجانب الغائب من أسطورة العنقاء في التراث العربي، يتمِّه ويكشفه طائر آخر يسمَّى السمندل، ويلقَّب بطائر النار، قال أبو منصور الثعالبي في صفته: هو طائر هندي ناري، يعيش في النار كما يعيش طير الماء في الماء، وقال آخرون: هو طير إذا هرم دَخَل نار الأتون أو نارا جاحمة، فيمكث ساعات فيعود شابا[28]. ولعل في نسبة الطائر إلى الهند ما يشي بغرابة هذه الحكاية عن البيئة العربية الأولى، وعدم أصالتها.

---

[23]: التوحيدي (أبو حيان علي بن محمد، ت400هـ)، البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، ط1، بيروت، 1988، ج5، ص129.

[24]: الأبشيهي (شهاب الدين أبو الفتح محمد بن أحمد، ت852هـ)، المستطرف في كل فن مستظرف، عالم الكتب، ط1، بيروت، 1998، ص134.

[25]: المعري (أبو العلاء أحمد بن عبد الله، ت449هـ)، شروح سِقْط الزند، تحقيق: مصطفى السقا وعبد السلام هارون وعبد الرحيم محمود وإبراهيم الأبياري بإشراف: طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، مصورة عن نسخة دار الكتب، 1986، ج2، ص553.

26: الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ج1، ص49.

27: الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد، ت429هـ)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف، القاهرة، ص450.

28: ينظر: الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص451.

وقد اشمل كتاب "ألف ليلة وليلة" على قصة طائر عظيم صادفه السندباد البحار، وهو المسمى بطائر الرخ، الذي يشترك مع العنقاء في الجسامة والضخامة، قال السندباد: «تسلّقت شجرة طويلة، ورأيت طائرا عملاقا يصل حجمه إلى ضعف حجم الفيل، وجناحاه يحجبان الشمس»[29].

وليس غريبا أن تتفرق أوصاف كائن أسطوري على كائنات عدة، فالأخبار في التبدل والانتشار، تتناسل تناسل الأفكار، والتغير سيماء الآثار على مر الأعصار. والأسطورة التي عليها المسحة العربية الخالصة هي التي رويت عن العنقاء؛ فالأمثال المأثورة عن العرب في شأنها كما جاء في "مجمع الأمثال" ليس فيها ذكرٌ للنار البتة، والمأثور قولهم: حلَّقت به عنقاء مغربٌ، يضرب في اليأس من الشيء[30].

ولا يحتاج المرء إلى كبير نظر حتى يتبيّن له بجلاء سببُ اختيارهم الطير دون سواه من ضروب الحيوان، يكسونه حلية الجلال والجمال، ويدثّرونه بأثواب العظمة والقوة؛ فالذي لامس عنان السماء، وعلا في الجو على الخلق، واخترق الفضاء الرحب تحليقا، أجدر وأحرى بالاصطفاء والانتقاء، ويدل عليه أن نبي الله سليمانَ (عليه السلام) اختاره دون سواه متحدثا بنعمة ربه، في قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل من 16]، مع أنه عُلِّم منطق غيره[31].

- **أسطورة الضبِّ والمختصمَيْن:**

في الموروث العربي القديم والموروث الجزائري الشعبي أن الحيوانات في عصر سحيق كانت تتكلم، ويعرف ذلك الزمنُ في الأدب العربي بزمن الفِطَحْل، ويزعمون أيضا أن الحجارة كانت لينة رطبة حينئذ[32]، أنشد رؤبة[33]: (الرجز)

---

[29]: مجهول المؤلف، ألف ليلة وليلة قصص من التراث، ترجمة: أميرة علي عبد الصادق، كلمات عربية للترجمة والنشر، ط1، 2012، ص47.

[30]: الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد، ت518هـ)، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، ط2، بيروت، لبنان، ج1، ص201.

[31]: ينظر: ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر، ت774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999، ج6، ص182.

[32]: ينظر: العسكري، (أبو هلال الحسن بن عبد الله، ت395هـ)، الأوائل، دار البشير، ط1، طنطا، 1987، ص65.

[33]: الميداني، مجمع الأمثال، ج2، ص50.

فقلتُ: لو عُمِّرت سِنَّ الحِسلِ ... أو عمر نوحٍ زمنَ الفِطَحْلِ
والصخرُ مبتلٌّ كطينِ الوحْلِ ... صرتُ رهين هَرَمٍ أو قتْلِ

وعلى هذه الفكرة الخيالية التي قد يظن ظانٌّ أنها مسنودة بقول الفقيه المالكي ابن العربي: «ولا خلاف عند العلماء في أن الحيوانات كلَّها لها أفهام وعقول»[34]، الراجعِ فيما يبدو إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام من 38] بنوا عليها أساطيرَ كثيرةً، نسجوا فيها كلاما وحوارات بين صنوف الحيوان المختلفة كحوار الناس مع الناس. ولا عجب في ذلك فقد أُثِرَ عن العرب إنطاقها الجماد، فإنطاقها للحيوان إذن أهون، قالوا: قال الحائط للوتد: «لم تشقُّني، قال: سل من يدقُّني»[35].

ونسج الحكايات على ألسنة الحيوانات ليس مما اختصت به أمة العرب، فقد ذَكَر أحد الباحثين أن الحكاية على لسان الحيوان، نمط ذائع في آداب الشعوب القديمة، ومن خصائصها أن الحيوان هو البطلُ فيها، وأنها تروى شعرا ونثرا[36].

لكن العرب فاقت غيرها في هذا الخيال، وزادت به على سائر الأمم؛ لفضل ما فيها من اللهج بالكلام، وما أوتيت من الاقتدار على التصرُّف في المنطق، فاختلقت لها قريضا، وفصَّلت أسجاعا[37].

وأسطورة الضب والمختصمَيْن مشهورة جدا، فقد روتها كتب كثيرة، واعتنت بإيرادها مصنَّفات الأمثال خاصة؛ لاشمتالها على مَثَلٍ ذائع، قال الميدانيُّ: «هذا مما زعمت العربُ على ألسن البهائم، قالوا: إن الأرنب التقطت ثمرة، فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضب، فقالت الأرنب: يا أبا الحِسْل، فقال: سميعا دعوتِ، قالت: أتيناك لنختصمَ إليك، قال: عادلا حكَّمتُما، قالت: فاخرج إلينا، قال:

---

[34]: ابن العربي (القاضي محمد بن عبد الله، ت543هـ)، أحكام القرآن، راجع أصوله وخرَّج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط3، بيروت، لبنان، 2003، ج3، ص472.

35: إحسان عباس، ملامح يونانية في الأدب العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1977، ص83.

36: ينظر: محمد رجب النجار، الحكاية والقناع في التراث العربي، مجلة العربي، العدد495، 2000، الرابط: www.balagh.com/mosoa/pages/tex.php?tid=1960، تاريخ الزيارة: 2015/04/19، الساعة: 04:34.

[37]: ينظر: الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص643.

في بيته يؤتى الحَكَم، قالت: إنّي وجدتُ ثمرة، قال: حلوةً فَكُلِيها، قالت: فاختلسها الثعلب، قال: لنفسه بغى الخير، قالت: فلطمته، قال: بحقِّكِ أخذْتِ، قالت: فلطمني، قال: حُرٌّ انتصر، قالت: فاقضِ بيننا، قال: قد قضيت. فذهبت أقواله كلها أمثالا»[38].

صُوِّر الضَّبُّ في هذه الأسطورة حذرا؛ لرفضه الخروج، غيرَ واعٍ لما أريد منه، صادقا فيه قولهم: أساء سمعا فأساء جابة. وصُوِّر الأرنبُ مغلوبا على أمره ساذجا ضعيفا؛ لعجزه عن افتكاك حقه، وطلبه الحُكْمَ فيما حُكْمُه ظاهرٌ، والثعلبُ ظالما خبيثا؛ لأخذه ما ليس له، واحتكامه إلى غير ذي سلطان. والحِكَمُ المنبثَّة في هذه القصة الخيالية، واضحة جلية، ضمت العظة والعبرة لأولي الألباب والنهى، منها حماية المرء ما بحوزته، وتركه الاحتكام إلى غير منصف، والانتصارَ بغير ذي قوة.

وقد لخَّص هذه الأسطورةَ قولُهُم في المثل المذكور: في بيته يؤتى الحكم، الذي انتقل إلى الشعر العربي، كما في قول الصيرميّ في البحتريَّ[39]: (مجزوء الكامل)

يا بحتريُّ حذار ويحك من قضاقِضَةٍ ضَغِمْ
فلقد أسلتَ لوالديك من الهجا سيل العَرِمْ
وبباب دارك حانةٌ ... (في بيته يؤتى الحَكَمْ)

- **أسطورة الهديل:**

لا يزال الحمام ممدوحا في الأشعار، مذكورا على ألسن العشاق المحزونين، موصوفا بالجمال والمحبة والشوق والحنين والإلف والأنس، فهو أعقل الطير كما ذكر الشافعي[40]. وقد تباينت أنظار الشعراء في هديله، بين من يراه غناء، ومن يراه بكاء، لكن الأكثرين على أنه بكاءٌ، قال ابن المعتز[41]: (الكامل)

وبكيتُ من جزعٍ لنوح حمامة ... دَعَتِ الهديلَ، فظَلّ غيرَ مجيبِها

38: الميداني، مجمع الأمثال، ج2، ص72.

39: ينظر: ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله، ت626هـ)، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1993، ج6، ص2424،2423.

40: ينظر: ابن العربي، أحكام القرآن، ج3، ص472.

41: ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى، ت749هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، ط1، 2002، ج7، ص299.

وقالت الخنساء في رثائها صخرا[42]: (الكامل)

فلأبْكِيَنّكَ ما سمعتُ حمامَةً ... تدعو هديلاً في فروعِ الغرقدِ

وقال عبد الله التلمساني[43]: (الطويل)

وممّا شجاني بعدما سكن الهوى ... بكاء حمامات لهنّ هديلُ

وقال شاعر آخر (الأشجع)[44]: (المتقارب)

وكُلُّ مُحبٍّ إلى إلْفهِ ... يَحِنُّ، وتُسعِدُه أَربَعُ

بُكاءُ الغَمام ونَوْحُ الحمامِ ... ورعدٌ وبرقٌ إذا يلمعُ

وزيادة على الشبه الظاهر بين هديل الحمام وبكاء النساء، فإن ترجيع هذا الطير منوط بأسطورة موغلة في القِدَم، جاءت الإشارة إليها في شعر ابن المعتز والخنساء المتقدِّم، وفحواها أنه كان على عهد نوح (عليه السلام) فرخٌ، فصاده جارح من الطير، فليس من حمامة إلا وتبكي عليه إلى يوم القيامة[45].

والذي ذكرناه، صرح به أحد الدارسين بقوله: «والهديل الذي يذكر في سياق إهاجة الأحزان، له قصة طريفة ترويها أسطورة أشار إليها بعض الشعراء»[46]. والذي يمليه النظر المتَّئد، أن التشابه بين هديل الحمام ونواح الباكين هو الباعث على نسج تلك الأسطورة، فلما كُتِبَ لها الذيوع والشيوع، ضمنت في الأشعار.

خاتمة:

إن التبصُّر في الأساطير العربية الحيوانية، التي نجت من غوائل الزمن وعوادي الأيام، يصل بما حوت من معان دفينة ما انقطع من الصلات والأرحام، ويعيد الإحساس بذي الأرواح، بعدما بلَّدتها أدران الحضارة، ويمسح عن عيون الأبناء كل غشاوة أعمتهم عن معايش الآباء، ويبوح لهم بأسرار كتمها النسيان، حتى كأن

---

[42]: الخنساء (تماضر بنت عمرو، ت24هـ)، ديوان الخنساء دراسة وتحقيق، تحقيق: إبراهيم عوضين، ط1، 1985، ص367.

[43]: المقَّري (شهاب الدين أحمد بن محمد، ت1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، لبنان، 1990، ج7، ص290.

44: الرقَّاء (السري بن أحمد، ت362هـ)، المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، تحقيق: مصباح غلاونجي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق، 1987، ج2، ص21.

[45]: ينظر: الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ج2، ص520.

[46]: محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، ط7، ص170.

جدودهم غير ما يعرفون، فليس إنسان اليوم إلا شتاتَ أناسيِّ الأمس، وسبيله إلى فهمٍ أعمق لنفسه، أن يعي معتقدات أسلافه الماضين، التي اختزنتها أساطير الحيوان الراحلة عبر الزمن.

المصادر والمراجع:

1- الأبشيهي(شهاب الدين أبو الفتح محمد بن أحمد، ت852هـ)، المستطرف في كل فن مستظرف، عالم الكتب، ط1، بيروت، 1998.

2- إحسان عباس، ملامح يونانية في الأدب العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1977.

3- أحمد بن فارس (ت395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط2، 1399هـ - 1979م.

4- الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد، ت370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 2001.

5- التوحيدي (أبو حيان علي بن محمد، ت400هـ)، البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، ط1، بيروت، 1988.

6- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد، ت429هـ)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف، القاهرة.

7- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر، ت255هـ)، الحيوان، دار الكتب العلمية، ط2، 2003.

8- الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد، ت393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط4، بيروت، 1987.

9- خليل أحمد خليل، مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط3، 1986م.

10- الخنساء (تماضر بنت عمرو، ت24هـ)، ديوان الخنساء دراسة وتحقيق، تحقيق: إبراهيم عوضين، ط1، 1985.

11- الدميري (كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى، ت808هـ)، حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، ط2، 2003.

12- الرفَّاء (السري بن أحمد، ت362ه)، المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، تحقيق: مصباح غلاونجي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق، 1987.
13- ابن عبد ربّه (أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد، ت328ه)، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1983.
14- عبد الرحمن حمدان، الأسطورة في مراثي الرئيس الراحل ياسر عرفات، مجلة جامعة الأقصى، غزة، فلسطين، المجلد12، العدد1، يناير2008.
15- ابن العربي (القاضي محمد بن عبد الله، ت543ه)، أحكام القرآن، راجع أصوله وخرَّج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط3، بيروت، لبنان، 2003.
16- العسكري، (أبو هلال الحسن بن عبد الله، ت395ه)، الأوائل، دار البشير، ط1، طنطا، 1987.
17- فاطمة علوي الصافي، الأسطورة اليمنية في الأدب العربي، مذكرة دكتوراه (مخطوط)، قسم اللغة العربية، جامعة البنجاب، باكستان، 1407ه- 1976م.
18- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى- دراسة في الأسطورة سوريا أرض الرافدين، دار علاء الدين، دمشق، ط11، (د، ت).
19- ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى، ت749ه)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، ط1، 2002.
20- فضيلة لكبير، دور الأسطورة الدينية في بناء النظام الاجتماعي، مذكرة ماجستير(مخطوط)، قسم علم الاجتماع والديمغرافيا، جامعة باتنة، 2009/2008.
21- القرطبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، ت671ه)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب العلمية، ط2، القاهرة، 1964.
22- ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر، ت774ه)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999.
23- مجهول المؤلف، ألف ليلة وليلة قصص من التراث، ترجمة: أميرة علي عبد الصادق، كلمات عربية للترجمة والنشر، ط1، 2012.
24- محمد رجب النجار، الحكاية والقناع في التراث العربي، مجلة العربي، العدد495، 2000.

25- محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، ط7.

26- المعري (أبو العلاء أحمد بن عبد الله، ت449هـ)، شروح سِقْط الزند، تحقيق: مصطفى السقا وعبد السلام هارون وعبد الرحيم محمود وإبراهيم الأبياري بإشراف: طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، مصورة عن نسخة دار الكتب، 1986.

27- المقَّري (شهاب الدين أحمد بن محمد، ت1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، لبنان، 1990.

28- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم بن على ت711هـ)، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، 1992م.

29- الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد، ت518هـ)، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، ط2، بيروت، لبنان.

ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله، ت626هـ)، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1993.